الإسلام دين الإنتاج (*)

لقد جاء الإسلام ليؤسس الأمة على أن يكون كل عضو منها فاعلًا في مجتمعه منتِجًا لا مستهلكًا فقط ، بل يكون أداةً من أدوات صناعة الجمال في الكون ، فعظّم من شأن العمل وأمر بالكسب الطيب ، والمشاركة في إعمار الأرض وتنميتها بالزراعة والتجارة والصناعة وبناء المصانع ، وإقامة الشركات المنتِجة التي تلبي حاجيات الناس وضرورياتها وفي الوقت نفسه ينبّه بأن لا يكون الإنسان كسولًا راكدًا متسولًا لغير حاجة، وقد نبّه القرآن المجيد على أهمية العمل ، فقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة:١٠٥].

من هنا يؤكد الإسلام على العمل والسعي ، واستثمار الطاقات والقدرات الموهوبة من الله (عز وجل) في طلب

*) د/ أسامة فخري الجندي– باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

الأرزاق بعزةٍ وشرفٍ ، فهذا هو النبي (صلى الله عليه سلم) يُنبّه أمته لذلك ، فيقول : (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ). والمعنى: لأن يذهب الرجل إلى الغابة فيقطع الحطب، ويجمعه ويحمله على ظهره، ثم يأتي السوق فيبيعه، أشرفُ له من أن يمدَّ يده لغيره، سواء أعطاه أو منعه، فإن منعه فقد أهانه، وإن أعطاه فقد منَّ عليه.

إن الإسلام يدعو كل إنسان أن يكون عزيز النفس يُحَقِّقُ كَرامَتَه ويعفّه عن السؤال بالعمل وجلب الأرزاق ، فبدلًا من أن يتكاسل عن العمل ويمدَّ يدَه للناس سائلًا منهم المال فليعمل ليتكسب، فروى البخاري ومسلم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله : (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم) قال الإمام النووي (رحمه الله): معناه: يأتي يوم القيامة ذليلًا ساقطًا، لا وجه له عند الله، وقيل: هو على ظاهره، فيُحشَر

ووجهه عظم لا لحم عليه؛ عقوبةً له، وعلامةً له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه، وهذا فيمن سأل لغير ضرورة سؤالًا منهيًّا عنه وأكثَرَ منه. (مسلم بشرح النووي).

وجدير بالذكر أن الإسلام ينظر إلى العمل نظرة عميقة ويدعو إلى استخراج كنوز الأرض ومعايشها ، يقول تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[الأعراف:١٠] ، وهذا يتطلب سعيًا حقيقيًّا لطلب الأرزاق فيها واستخراج كنوزها ومعادنها ، وصناعة الأدوات والآليات التي تُمَكِّن من ذلك إذا أردنا بناءً اقتصاديًّا حقيقيًّا للأمة .

هكذا كانت وستظل دعوة الإسلام إلى توجيه الطاقات نحو العمل والإنتاج ، وذلك باستخدام الجوارح والمواهب والقدرات والإمكانات التي وهبها الله للإنسان وتوجيهها لطلب الرزق ، ومن ثم القضاء على مظاهر التسوّل والفقر، يقول تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي

مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك:١٥]، وقد أخرج الطبراني عَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

ولننظر إلى صحابة النبي (رضي الله عنهم) وكيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علّمهم بأن يكونوا منتجين نافعين لأمتهم غير كسالى ولا عالة على غيرهم ، فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَنَسٍ (رضى الله عنه) قَالَ قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، فَآخَى النبي (صلى الله عليه وسلم) بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ

وَمَالَهُ ، فَقَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، دُلَّنِي عَلَى السُّوق .

وهكذا يترجم لنا عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) تربّية النبي (صلى الله عليه وسلم) له وللصحابة جميعا على التدافع والعمل والسعي ، وأن يكونوا منتجين نافعين لمجتمعهم ، فيذهب إلى السوق ويبدأ في التجارة وطلب الأرزاق.

ولقد جعل الإسلام لكل من سعى وعمّر الأرض ثوابًا وفيرًا ، فله بكل أرضٍ زَرَعَها صدقةٌ ، ومعلومٌ ثواب الصدقة وما فيها من مداواةٍ للأمراض ، وجعل صاحبها واحدًا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم والسنة المشرفة، فقد أخرج البخاريُ ومسلمُ في صحيحيهما عنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ،

إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ). بل حثَّ الإسلام على العمل حتى آخر نفس في حياة الإنسان ولو أدركته الساعة ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) .

ولفضل هذا العمل وأثره الباقي حتى بعد الممات ، أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن أَبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) .

على أن الإسلام أيضًا يرفض البطالة المقنّعة، لأنها أحد الأسباب الرئيسة لتأخر البلاد اقتصاديًّا، ويحث الإسلام كل عامل في عمله أن يحرّك الأعمال المعطّلة ؛ فتتسارع الأعمال فتُنجَز فيكون هناك إنتاجٌ يكفي حاجيات الناس ،

وربما يكون هناك فائضٌ فيتم تصديره ، وهذا معناه أن يكون هناك دَخْلٌ بالعملة الصعبة ، وبالتالي يكون ذلك دفعًا لعجلة الاقتصاد في الدولة ؛ فيعود بالخير على الجميع ، فهذه رسالة الإسلام لمن أراد أن يمضي قدمًا في زيادة الإنتاج وتوفيره.

ولننظر إلى صفوة الخلق "الأنبياء والرسل" (عليهم السلام) ونتخذ منهم القدوة والأسوة ، فهم أشرف الخلق ومع ذلك كانوا يعملون ويجدّون ويسعون لتحصيل الرزق ، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يعمل بالتجارة عند السيدة خديجة (رضي الله عنها) ، وقبل ذلك كان (صلى الله عليه وسلم) يرعى الغنم ، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ).

وهذا هو سيدنا داود (عليه السلام) علّمه الله صنعة الدروع، فكان يجيد الحِدادةَ، وصناعة الدروع الحربية، قال تعالى:{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ}[الأنبياء:٨٠]، والمراد باللبوس: الدروع. يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهلِ العقول والألباب... وأخبر الله تعالى عنه أيضًا أنه كان يصنع الدروع والخوص، وكان يأكل من عمل يده، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ).

وكان آدمُ (عليه السلام) حَرّاثًا، ونوحُ (عليه السلام) نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوتُ دباغًا، وقيل: سقّاء، فالصنعة يكف بِها الإنسان نفسه عن الناس)، وقد ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (كان زكريا نجارًا) .

وهذا موسى (عليه السلام) عمل في رعي الغنم ثماني سنوات كما ورد في قصته مع ابنتي الرجل الصالح مقابل نكاح إحدى ابنتيه، قال تعالى: { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [القصص :٢٧-٢٨] .

إن الإسلام بما يتسم به من شمولية يدعو إلى التنمية ، والتقدم والنمو، وبناء كيان اقتصادي للأمة ؛ لتواجه به كل الصعاب ، وتلبي من خلاله كل حاجياتها ، لقد قال تعالى : {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[الأعراف :١٠]

والمؤمن الذكي لا يمر مجرد مرور على الآيات القرآنية المشرفة دون أن تتشكل شخصيته بالقرآن ، فينفعل للآيات

ويحولها لخطط عمل وبرامج تطبيقية ، فلا بد من استخراج هذه المعايش التي أخبرنا عنها ربنا جل وعلا ، وهذا يحتاج إلى مجتمع يعمل بكل طاقاته ليستخرج هذه المعايش من الأرض ويحقق وجودها في الواقع ، فيعود نفعها على المجتمع كله . وهذا هو معنى التنمية الاقتصادية التي من خلالها نعلّم أجيالنا مهنا وصناعاتٍ وحرفًا متنوعة ليكونوا أدوات حقيقية للتنمية الاقتصادية، ولن يتأتى ذلك إلا بالعمل وزيادة الإنتاج ؛ لنكون في مكاننا الذي ينبغي أن نكون عليه.

ولا يدعو الإسلام للعمل دون إتقان ، بل إن الأصل هو أن يصاحب الإنسان معه قيمة الإتقان في العمل ؛ وذلك حتى تتمايز الصناعات ، وإلا فمن أين يجأر الناس بالشكوى؟!! إلا بسبب عدم الإتقان، فليمتثل كل عامل قيمة الإتقان ، فكل عامل إن أحسن في صنعته للآخر ، تمايزت وتعاونت الصناعات ولا تتعاند ، ونجد لنا مكانًا بين الصناعات

المتقنة المتقدمة . قال الله تعالى : {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}[القصص:٧٧] ، فلنتخذ الإحسان في كل شيء ؛ لتتأكد قيمة الإتقان في العمل ، وهذا ما أكّده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حين قالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (أخرجه الطبراني).

كما أكد الإسلام على التزام الأمانة في العمل ، فلا غش ولا خداع ولا تزييف ولا حيلة ، فالعبادات ليست شعائرية فقط ، بل العبادات شعائرية وتعاملية ، ولا تصح العبادات الشعائرية بدون التعاملية ، فليكن الإنسان أمينًا ، متقِنًا ، صادقًا ، إلى غير ذلك من الأخلاق المحمودة في العمل ؛ لنجد إنتاجًا قويًّا ثريًّا يدفع عجلة الاقتصاد .

فمن التزم تلك الأخلاق في عمله رفعه الله تعالى درجات عالية وموفورة تصل إلى درجة الشهداء ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ الْمُسْلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ) (أخرجه الترمذي والبيهقي).

هذا هو الإسلام يدعو إلى العمل والإنتاج ، واستثمار الطاقات لبناء كيان اقتصادي قوي للأمة ، فالأصل التكامل وتعليم المهن والصناعات والحرف المختلفة ، وليس في الإسلام مهنةٌ حقيرةٌ إلا ما حُرّم في نصوص الكتاب والسنة.